قصة المطبعة

بقلم

الدكتور ابراهيم عمده

الطبعة الثانية

١٩٦٧

الناشر
مؤسسة سجل العرب

مطابع سجل العرب

قصة المطبعة

بقلم
الدكتور ابراهيم عبده

الطبعة الثانية
١٩٦٧

الناشر
مؤسسة سجل العرب

هلق

مطابع سجل العرب

بسم الله الرحمن الرحيم

بطاقة الدعوة

تسكن أسرة عصام حى الزمالك ، أحد الأحياء الجميلة فى القاهرة .

وتتكون هذه الأسرة من والد عصام وهو صاحب مطبعة من أكبر مطابع المدينة ، ووالدته وهى سيدة مهذبة ، وأختيه وهما طفلتان صغيرتان .

وكان والد عصام يحبه ويهتم بكل أموره ، ويفرح حين يراه سعيداً ، ويأتى له بما يطلبه من الملابس الغالية والألعاب المناسبة لسنه ، ويقيم احتفالاً سنوياً بعيد ميلاده يدعو إليه الأهل والأصدقاء .

وكثيراً ما كان يجلس معه فى أوقات فراغه ، ليتحدث إليه عن دروسه وليتعرف أحواله ويعاونه على حل مشاكله ، وليشعره دائماً برعايته له .

وفى إحدى الليالى قال الأبُ :

ـ لقد قرُبَ عيدُ ميلادِكَ يا عصام، وَإنّى لعازمٌ على أن تدْعُو فى هذه المرّةِ كلَّ زُملائك وجميعَ أبناءِ الأُسْرَةِ إلى الاحتفالِ بهذا العيدِ السّعيد .

ـ وَكَيْفَ ندْعوهمْ يا أبى وَبعضُ أبنـاءِ الأسرةِ يسكُنونَ فى أحياءٍ مُتفرّقةٍ فى ضَواحى القاهِرة ؟

ـ من حُسنِ حظّكَ يا عِصام أنَّ عيدَ ميلادِكَ فى هذا العـــام سَيُوافِقُ يومَ الجُمُعَةِ ، وَبذلكَ يستطيعُ كلُّ زملائكَ وَأقاربكَ حُضُورَ هذا العيد .

ثم قال الوالد :

ـ عليكَ أن تدْعُوَ زُملاءَكَ فى المدرسةِ وعلىَّ أنْ أتولّى دعْوَةَ أقاربكَ من أبناءِ الأُسْرَة .

لقد أبْدَى الوالدُ اهتماماً كبيراً بالعيـدِ العاشرِ لميلادِ عِصامٍ ، إذْ كانَ تلميذاً مُجْتهداً فى دُرُوسِهِ وابناً مطيعاً لوالديْهِ . مَحْبُوباً من جميعِ أهلِهِ وأصدقائه .

وسأل عصامٌ والدَه :

ـ وكيفَ نَدْعو يا والدى أقاربي من أبناءِ الأُسرةِ ، وبَعْضُهُمْ فى مِصْرَ الجَدِيدَةِ والبعضُ الآخرُ فى حُلْوان .

ـ سأُرْسِلُ لَهُمْ بِطاقَةَ دَعْوَةٍ .

ـ وما بطَاقَةُ الدَّعْوَةِ ؟

ـ قطْعَةٌ صغيرةٌ من الورَقِ الأبْيَض المُقَوّى نَطبعُ عليها بعضَ العباراتِ الجَميلة ، نَدْعُوهم بها إلى الحُضُورِ فى يومِ عيـدِ ميلادِكَ وَنُرْسِلُها بالبَريدِ إلى حَيْثُ يَسْكُنون .

ـ فِكْرَةٌ جَميلَةٌ . . وَنَسْتَطيعُ أن نَطْبَعَها فى مطْبَعَتِنا . . .

ولكنْ كَيْفَ تَطْبَعُونَها يا والدى ؟

ـ سأذكرُ لك ذلكَ فيما بعد .

وَأعدّ والدُ عِصامٍ كلَّ ما يَلْزمُ للاحْتِفالِ بعيـدِ الميلادِ مِنْ حَلْوى وَشَاىٍ وَسُكَّرٍ ، وزَيَّنَ غُرْفَتَىْ الضُّيوفِ وَالطَّعامِ بشَرائِطَ مِنَ الورَقِ المُلَوَّنِ الذى يُعَلَّقُ بالسَّقْف، ووضع فى وَسَطِ مائدةِ الطَّعامِ قَطيرةً كبيرةً مُسْتَديرةً ثَبَّت بها شُموعاً عشراً كلُّ شَمْعَةٍ فيها

تشيرُ إلى مُرُورِ سَنَةٍ من عُمْرِ ولدِه .

وفى اليومِ الموعُودِ جاء زملاءِ عِصام وانضمَّ إليهمْ أقاربُهُ من أبناءِ الأُسرةِ وبناتِها فَرِحِينَ ، ومع كلٍّ منهمْ بِطَاقَةُ الدَّعْوَةِ وهديَّةٌ مُناسِبَةٌ وَأَخَذُوا يُحَيُّونَ عِصاماً وَيُهَنِّئُونَهُ بِعِيدِ مِيلادِه ويتمنَّونَ له عَشَراتٍ من أعيادِ الميلادِ السَّعيدةِ بإذنِ الله .

وقال عصامٌ لزملائِهِ وأقاربِه :

ـ إننى أشكرُكُمْ على هذه الهَدايا الجميلة .

وذكرتْ بنْتٌ من أقاربِهِ أنَّها فَرِحَتْ جداً بورقةِ الدَّعْوَةِ .

فقال والدُ عصام :

ـ إسمُها بِطَاقَةُ الدَّعْوَةِ .

وقال عِصامٌ :

ـ إنَّ والدى طَبَعَها فى مطْبَعَتِهِ .

وأخذَ المدعوُّونَ من زملاءِ عصام وَأقاربِهِ الصِّغَارُ يُمْطِرُونَ أَبَاهُ بالأَسْئِلَةِ عَنْ بِطَاقَةِ الدَّعْوَةِ ، وكيف تَعملُ المطْبعةُ ؟

فقالَ أحدُهُم :

ـ إنَّنا يا عمى نُريدُ أن نَعرفَ الطَّريقةَ التى تَطْبعونَ بها مِثْلَ هَذه البِطَاقَةِ .

فَرَدَّ الوالِدُ قائلاً :

ـ مَهْلاً يا أَعِزَّائى : إنَّ لِهَذا وقْتاً آخَرَ ، ونحنُ اليومَ نَحْتفلُ بعيدِ ميلادِ أخيكمْ عِصام ، فَهَيَّا إلى مائدةِ الطَّعامِ حيثُ تَشْرَبونَ الشَّايَ وتُشارِكُونَ أَخَاكُم عِصاماً الفَرْحَةَ بِذِكْرَى مِيلادِه ، ولا تَنْسوا أن تأكلُوا الحَلْوَى كلَّها لِيكُونَ ذَلِكَ دَليلاً على تَمامِ فَرْحَتِكُم بعيدِه المُبَارَك .

وقال ولدٌ من المدعُوِّين :

ـ وهذه الفَطيرَةُ الكبيرةُ ؟

فقال الوالدُ :

ـ سَنُوقِدُ شُمُوعَها ثم تَجْتَمِعُونَ حَوْلَهَا وَتَنْفُخُونَها معاً لِتَنْطَفِئَ دَفْعَةً واحِدَةً .

وشَرِبَ الأَطْفالُ الشَّايَ وَأَكلوا الحَلْوَى وأطْفَئُوا شُمُوعَ الفَطِيرَةِ الكبيرةِ فى ضَجَّةٍ مِنَ الضَّحِكِ وَالمَرَحِ وَالتَّصْفِيقِ .

ولكنْ بِنْتاً عادتْ إلى سُؤَالِ والدِ عصام :

ـ أَظُنُّ أَنَّنا انتهَيْنا من الاحْتفالِ بعيدِ ميلادِ أَخينا عِصام ، فماذا نعملُ الآنَ ؟

ـ تَنْتَظِرُونَنَا نَحْنُ الكِبارَ حتّى نتناولَ فِنْجَاناً من الشَّاي ، فما يَصِحُّ أَنْ يَنْتَهِيَ عِيدُ ميلادِ عصامٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ نُشَارِكَ فى الابْتِهَاجِ بهذا العيدِ ، ولا تَنْسوا أَنَّ بَعْضَكم حضَرَ من مِصرَ الجديدةِ أو حُلْوانَ فى صُحْبَةِ أبيهِ أو أخيهِ الكبيرِ فلا يَحْسُنُ أَنْ يَنصرِفُوا قَبْلَ أَن يَتناوَلوا فِنجاناً مِنَ الشَّاى كما تناولتُمْ .

وعادَتِ البِنْتُ تقولُ :

ـ إِنَّنا مُسْتَعِدُّونَ للانْتِظَارِ يا عَمِّى كما تشاءُ بِشَرْطٍ واحد .

ـ وما هذا الشَّرْطُ ؟

ـ أَنْ تَذْكُرَ لنا كيفَ طَبَعَتِ المطْبَعةُ بِطَاقَةَ الدَّعْوَةِ ؟

ـ لا يُمكنُ يا بِنتى شَرْحُ ذَلِكَ إلا بمُشَاهدَةِ المطْبَعَةِ ، واليومَ يومُ عُطْلَتِهَا :

ـ إِذَنْ فَنحنُ لن نرَى المطبعةَ أبداً .

ـ لماذَا ؟

ـ لأنَّ يومَ عُطْلَتِهَا هو يومُ عُطْلَةِ المدَارِس .

ـ بَلْ سَتَرَوْنَهَا قريباً .

وقال الصِّغارُ المدعوُّون فى لَهْفَةٍ :

ـ ومَتَى ذلكَ يا عمِّى ؟

ـ بَعْدَ شَهْرٍ تَبْدَأُ عُطْلَتُكم الصَّيْفِيَّةُ ، وفى أَثْنَائِهَا سأُحَدِّدُ لَكُمْ يَوْماً تَزُورونَ فيهِ مطْبَعَتِي وَتَرَوْنَ كَيْفَ تَقومُ بطبعِ البِطَاقَاتِ والكُتُبِ وَالصُّحُفِ .

وَصَفَّقَ الأولادُ والبناتُ فَرَحاً ، وَشَكَرُوا عمَّهُمْ على هذا الوَعْدِ الجَمِيل . وحَيَّوا عِصاماً دَاعِينَ لهُ بطولِ العُمْرِ وَدَوَامِ الصِّحَّةِ وَالتَّوفِيقِ ، ثم انصَرَفُوا عائِدِينَ إلى بيوتِهِم .

فى المطبعـــــة

بَرَّ والدُ عِصامٍ بِوعْدِهِ واستَقْبَلَ فى أَحَدِ أَيَّامِ العُطْلَةِ الصَّيْفِيَّةِ أَصْدِقاءَ ابْنِهِ فى مطبَعَتِهِ وَهِىَ مطبعةٌ كبيرةٌ فيها كلُّ مُعدَّاتِ الطِّبَاعَةِ الحديثةِ .

وَدَخلَ الأَبناءُ والبناتُ على عمِّهم والدِ عصامٍ فى حُجْرَتِهِ بالمطبعـةِ ، وهىَ حُجْرةٌ زَيَّنَ العَمُّ جُدْرانَها بِنَماذِجَ من المَطْبُوعاتِ التى أَخْرَجَتْهَا مطبعتُهُ .

وكانتِ الفَرْحَةُ تَظْهَرُ عَلَى وجُوهِ الأَولادِ ، وَالبِشْرُ يَغْمُرُ نُفُوسَهُم وبَادَرَهُ واحدٌ مِنْهُم بِسُؤالٍ عن الصُّوَرِ الملوَّنَةِ المُعَلَّقَةِ على حَوائِطِ الغُرْفَةِ .

ـ إِنَّها نَماذِجُ لِمـا طَبَعْناه .

ـ وكَيْفَ طَبَعْتُم يا عمى هذهِ الصُّوَر ؟

ـ لا تَسْتَعجِل يا بُنَىَّ . فَسَنَقُومُ بَعْدَ لحْظَةٍ لِنُشَاهِدَ المَطْبَعَةَ .

ـ وهلْ سَنَرَى المطبعةَ وهى تَطْبعُ الصُّوَر ؟

ـ سوفَ تَرى كلَّ شَىءٍ .

وقادَ الوالدُ أصدقاءَ عِصامٍ وزملاءهُ إلى رُدْهَةٍ فَسِيحَةٍ مُقَسَّمَةٍ إلى عِدَّةِ أَقْسَام .

ورأى عصامٌ وأصحابُهُ عُمَّالَ المطبعةِ ، وَكلُّ جَماعةٍ مِنْهُمْ تَعملُ فى ناحِيَةٍ ، وَفَهِمُوا أَنَّ فَنَّ الطِّبَاعَةِ يَتَكَوَّنُ مِنْ عِدَّةِ أَقْسَامٍ ، وكلُّ قِسْمٍ له عُمَّالُه المُخْتَصُّون ، وعَلِمُوا أَنَّهم وَإِن كانُوا يَعْملونَ فى هذا المكانِ معاً إلا أَنَّ كلَّ مَجْمُوعةٍ مِنَ العُمَّالِ مُسْتَقِلَّةٌ بعملٍ من أَعْمالِ الطِّبَاعَةِ .

وقال والدُ عِصامٍ مُشِيراً إلى العُمَّالِ الواقِفينَ أمامَ الصَّنَادِيق .

— إنَّ هَؤُلاءِ يقُومونَ بِجَمْعِ حرُوفِ الطِّبَاعة .

— وما جَمْعُ حرُوفِ الطِّبَاعَة ؟

— إنَّكُمْ تَرَوْنَ فى هَذهِ الصَّناديقِ الحروفَ الهِجائِيَّةَ مِنَ الأَلِفِ إلى الياءِ ، وَتَرَوْنَ العامِلَ يَقِفُ أمامَ هذه الصَّنادِيقِ ، فإذا أرادَ مَثَلاً جَمْعَ جُمْلَة « الْوَطَنُ أَعَزُّ شَىْءٍ فى الحَيَاة » مَدَّ يَدَه إلى الصناديقِ التى فيها حُروفُ الكلِمَةِ الأُولَى وهِىَ (الْوَطَنُ) وَأَخَذَ حَرْفَ الْأَلِفِ وَوَضَعَهُ — كما تُشاهِدُونَ — على قاعِدَة من الخَشَبِ يُمْسِكُها بِيَدِهِ ثُمَّ وَضَعَ إلى جانبِهِ حَرْفَ اللَّام ، وهَكذا حتَّى يَتَكَوَّنَ لَفظُ (الْوَطَنْ) وَيَظَلُّ يَجْمَع بَعْدَهُ سائِرَ الكلِماتِ التى تَتألَّفُ مِنْها هَذهِ العِبارَةُ حَتَّى يَتِمَّ صَفُّ السَّطْرِ المَطْلُوب .

ومِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تُسَمَّى هَذِهِ القِطْعَةُ الخَشَبِيَّةُ التى يَحمِلُها العامِلُ على يَدِهِ (المِصَفّ) .

— وكَمْ كلمةً يُمْكِنُ جَمْعُها فى سطرٍ واحدٍ ؟

تَخْتَلِفُ السُّطُورُ يا أَبْنائِى باخْتِلافِ الأَحْوالِ ، فَقَدْ

طريقةُ صفِّ الحُروفِ

يَكونُ السَّطْرُ حِيناً كَلِمَةً واحِدَةً ، وحِيناً يكونُ عَدَداً مِنَ الكلِماتِ .

ـ وماذا يَصْنَعُ العامِلُ بَعْدَ أَنْ يُتِمَّ جَمْعَ السَّطْرِ ؟

ـ يَجْمَعُ جُمَلاً أُخْرَى فى سُطُورٍ أُخْرى وهكَذا حتى تَتَكَوَّنَ صَفْحَةٌ كامِلَةٌ .

ـ وكَمْ سَطْراً فى الصَّفْحَةِ ؟

ـ قد تتكوَّنُ الصَّفحةُ من عَشرةِ سُطُورٍ أو عِشرينَ سَطْراً أو أكثرَ تبعاً لِحجْمِ الحُرُوفِ ومِساحَةِ الصَّفْحَةِ .

قال عصامٌ :

ـ ماذا تَعْنِي يا والِدِي (بِحَجْمِ الحُرُوفِ) ؟

ـ الحُرُوفُ يا بُنَيَّ لها أحجامٌ مُخْتَلِفَةٌ ، فالحجمُ الكبيرُ يُكَوِّنُ سُطُوراً قليلةً بالصَّفْحَةِ ، والحجمُ الصَّغيرُ يَسْمحُ بتكوينِ سُطُورٍ كثيرةٍ ، وَأَنْتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُلاحِظَ ذَلِكَ الفَرْقَ بالنَّظَرِ إلى أَحْجامِ الحُرُوف فى الكُتُبِ التى تُقَدِّمُها لكَ المَدْرَسَةُ .

* * *

ودَقَّ جَرَسٌ فى المطْبَعَةِ فَتَوَقَّفَ العُمَّالُ عن العَمَلِ ، وَدُهِشَ الأَولادُ لِذلِكَ وسألُوا عنه :

فقالَ والدُ عصام :

ـ هذه فترةُ الرَّاحَةِ لِلْعُمَّال .

والآن :

ـ تَعالَوْا يا أبْنائِى إلى مَكْتَبِى لِتَشْرَبُوا ما تَشاءون مِنَ المُرَطِّبَاتِ حتَّى تَنْتَهِىَ فترةُ اسْتِراحَةِ العمَّال .

* * *

وَبَعْدَ لَحَظَاتٍ دَقَّ الجَرَسُ مُعْلِناً عَوْدَةَ العُمَّالِ إلى أَعمالِهِم ، فانْتَقَلَ الجَمِيعُ إلى المطْبَعَةِ مَرَّةً أُخْرَى ، وانْهالَتِ الأَسْئِلَةُ على والدِ عصام :

ـ لا تَسْتَعْجِلوا يا أَولادِى ، فقدْ رأَيْتُمْ كَيْفَ يَجْمَعُون الحُرُوفَ والكلماتِ وَيَصُفُّونَها فى سُطور ، وَيُرَتِّبُونَ السُّطُورَ حَتَّى تُصْبِحَ صَفْحَةً كامِلَةً مُكَوَّنَةً مِنْ عِدَّةِ سُطُورٍ ، فانظُرُوا الآنَ ما يَعْمَلُون .

وَنَظَرَ الْأَطفالُ إلى العمّالِ وهم يَضَعُونَ ما جَمَعُوا منْ صَفَحَات وَضْعاً مُحْكماً ، دَاخِلَ إطَارٍ حَدِيدِىّ يَرْبطُها رَبْطاً مَتِيناً .

ثمَّ ثَبَّتُوها بمكانٍ مُعَيّنٍ من آلةٍ كبيرةٍ للطِّباعةِ فى انتظار دَوَرانِها .

ـ وبمَ يدُيرُونَ هَذِهِ الآلةَ الضَّخْمَة ؟

ـ يُدِيرُونَها بِقُوَّةِ الكَهْرُبَاء .

وهُنا أشارَ والدُ عِصامٍ إلى العامِلِ إشارَةَ البَدْءِ ، فَقَبَضَ على مِفْتاحٍ وحرَّكَهُ فَدَارَتِ الآلةُ بين إعْجَابِ الأوْلادِ وَدَهْشَتِهِمْ .

وَنَظَرَ أصدقاءُ عِصامٍ فَشَاهَدوا المكانَ الذى وُضِعَتْ عليهِ الصَّفحاتُ يَمُرُّ تَحْتَ اسْطِوانةٍ من المَطَّاط ، فسألَ أحَدُهُمْ :

ـ ما الغرضُ من هذه الاسْطِوانةِ ؟

ـ إنها تُغطَّى بطَبَقَةٍ مِنَ الحِبْرِ أيًّا كانَ لَوْنُهُ . لِتَشْرَبَ مِقْدَاراً كبيراً منه .

ـ وما أهَمِّيَّتُها ياعمِّى ؟

ـ إنَّها من أهَمِّ أجْزَاءِ المطْبعَةِ وبدونها لا يتمُّ الطَّبْعُ . ولأبيِّنَ لكم ذلكَ بإيضاح أقول :

إذا مرَّتِ الصَّفَحَاتُ تحتَ هذهِ الاسْطِوانةِ كُسِيَتِ الحُرُوفُ بالحِبْرِ وَإذَا وَضَعْنَا الوَرَقَةَ البَيْضَاءَ عَلَى الصَّفْحَةِ ذَاتِ الحُرُوفِ المَكْسُوَّةِ بِالحِبْرِ وَضَغَطْنَا عليها ـ كما تَرَوْنَ ـ انطبعتِ الكلماتُ فيها ، وظهرتْ سُطورُها واضِحَةً جَلِيَّةً .

ـ وهلْ بِهذَا يَنْتهى الطَّبع .

ـ نَعَمْ بِهذَا يَنْتهى الطَّبع .

ـ وماذا يَصْنَعُون بهذهِ الأوراق بَعْدَ طَبْعِها ؟

ـ يأخذها عُمَّالُ قِسْمِ التَّجليدِ ويطْوُونَها بالكَيْفِيَّةِ المَطْلُوبَةِ كما تُشَاهِدُونهم الآن .

* * *

وَهُنَا تَقَدَّمَ أحَدُ الأطفَالِ مِنْ وَالِدِ عِصامٍ وقال :

ـ شُكْراً لكَ يا عَمِّى . أتَسْمَحُ أنْ تُبَيِّنَ لنا كيفَ تطبعُونَ الصُّوَر ؟

ـ إنَّ طَبْعَ الصُّورِ كَطبْعِ الصَّفحاتِ ، إلَّا أنَّ الصُّورَةَ تكونُ قِطْعَةً وَاحِدَةً مَحْفورةً على الزِّنكِ أو الرَّصاصِ ، ولكى تَظْهَرَ على الوَرقِ يَجِبُ أن تُوضَعَ فى آلةِ الطِّباعَةِ وتَمُرَّ بالاسْطوانةِ التى مَرَّتْ بها الصَّفحاتُ .

وقال آخرُ من أصدقاءِ عصام :

ـ لقد رَأَيْنَا يا عَمِّى كيفَ يطْبَعُ العمالُ الأوراقَ بَعْدَ أن يجمعُوا الحروفَ بأيديهِمْ ، ولكنَّنَا نُشاهِدُ عاملاً هُناكَ يدقُّ على آلةٍ فتخرجُ منها الحروفُ على هيئةِ سُطورٍ مَصْفوفةٍ .

ـ إنَّها آلةُ الجَمْعِ الآلِى .

ـ وما آلةُ الجَمْعِ الآلِى ؟

ـ إنَّها تَقُوم مقامَ عِدَّةِ عُمَّال فتجمعُ الحروفَ كما تَرَوْن بلمْسِ أزْرارٍ ، على كلِّ زِرٍّ حرفٌ أوْ رَقَمٌ أو عَلامَةٌ ، وهى كالآلةِ الكاتبةِ ولكنَّها تعملُ بتيَّارِ الكهرباءِ .

ـ أليْسَتْ طَرِيقةُ الجَمْعِ بهذهِ الآلةِ أسْرَعَ من طريقةِ الجمعِ باليـــدِ ؟

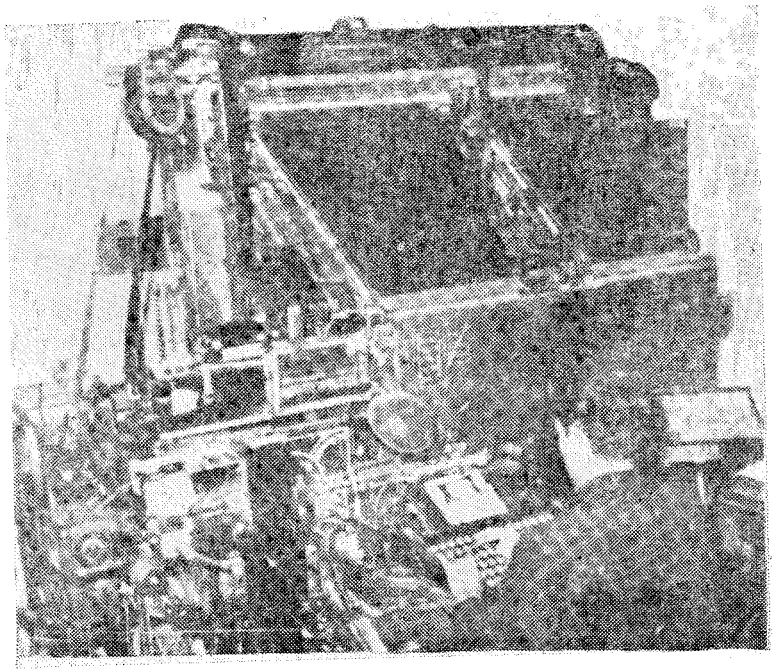

آلة الجمع الآلى

ـ إنَّها فعـــلاً أَسْرَعُ ، وهى تُسْتَعْمَلُ فى جَمْعِ حُروفِ الصُّحُفِ اليوميَّةِ والمجـلَّاتِ وغيرِها من المطبوعاتِ التى تَحْتَاجُ إلى سُرْعةٍ فى الجمعِ بسببِ ارتباطِها بوقْتٍ محدودٍ لِنَشْرِها وتوزيعِها .

وهُنَا قالَ عصامٌ :

ـ باركَ اللهُ فى حَيَاتِكَ يا أَبى ، وكيف يطْبَعُونَ الصُّحُفَ وَالمَجَلَّاتِ ؟

ـ فأَجابَ وَالِدُ عصام مُشيراً إلى آلةٍ للطِّباعَةِ ارْتفعَتْ حتَّى بلغَ ارتفاعُها عَشْرَةَ أَمْتَارٍ تقريباً :

ـ ما عليكم إلاَّ أنْ تَنظُرُوا إلى هـذِهِ المطْبعةِ الـكبيرةِ ذَاتِ الاسْطواناتِ الـكثيرةِ المُعقَّدةِ ، لتعرفوا من ضَخَامةِ حَجْمِها وتعَدُّدِ اسطواناتِها ، ودقَّةِ تركيبِها أَنَّها آلةٌ للصُّحُفِ تطبَعُ عَشَرَاتِ الأُلوفِ من نُسَخِ الجَريدةِ فى السَّاعةِ الْوَاحدَةِ .

وَبدتِ الدَّهْشةُ على وجُوهِ الصِّغَارِ ، وَبَهَرَهُمْ عالَمُ الطِّبَاعَةِ بحُرُوفِهِ وآلاتِهِ الـكثيرةِ ، وَعُمَّالِهِ المَهَرَةِ .

وقالَتْ بنتٌ من قريباتِ عِصامٍ :

ـ يالهُ من صُنعٍ عظيمٍ ، كيفَ صَنَعُوا كلَّ هذا ؟ وَمَتَى صَنَعُوه ؟

فأجابَ والدُ عصامٍ بقوله :

ـ إنَّ لهذَا حديثاً آخَرَ يا صَغيرتى العزيزة ، سأذكُرُهُ لـكم وَنَحْنُ نتَنَاوَلُ طعامَ الغداءِ ، فإنـكُمْ جميعاً فى ضِيافةِ أخيكُمْ عصامٍ اليَوْمَ ، فَهيَّا إلى المائدةِ .

تاريخ المطبعـــة

جلسَ الأوْلادُ بَعدَ تَناوُلِ الطَّعامِ يَتَذاكَرونَ عَجائِبَ ما رَأَوْا فى المطبعةِ من آلاتٍ ، وَيَشْكُرُونَ لِوَالِدِ عصامٍ ما أَبْدَاهُ نحوَهُمْ من كرمِ الضِّيافَةِ وحنانِ الأُبُوَّةِ ، وما قَدَّمهُ لَهُمْ من غِذاءٍ عَقْلِيٍّ وَجِسْمِيٍّ ، فَسُرَّ الوالدُ بهذا الشُّعورِ الجميلِ من هَؤُلاءِ الصِّغارِ المُهذَّبينَ وأقبلَ عليهِمْ يقول :

ـ لقد سألتُم يا أَبْنائِى أَسْئِلَةً كثيرةً كانت دَليلاً على ذكائِكم واهتمامِكم ، فدعُونى الآنَ أَقُصُّ لكم تاريخَ هذا الاخْتِراع ، فإنَّ قِصَّتَهُ لا تخلُو من طرائفَ وغرائِب.

قامَ أَحَدُ الأُورُوبِّيين بأوَّلِ مُحاولَةٍ للطَّبعِ بِالْحُروف ، فَصَنَعَ حُروفًا من الخشبِ ، ولكنَّ هذهِ الطَّرِيقةَ فى الطبْعِ لم تُساعِدْ عَلَى نَشْرِ الكتُبِ ، فَقَدْ كانت الْحُروفُ المصْنُوعَةُ من الخشبِ كبيرةً جداً ، بحيث تَحْتاجُ إلى مكانٍ واسعٍ لِحِفْظِها ، كما أَنَّ الْفِئْرَانَ كانت تَقْرِضُها وكذلك كانَ السُّوسُ يَعْمَلُ فيها فيُفسِدُها وَيَتْلِفُها .

جُوتِنْبِرْج مخترع الطِّباعَةِ

وَأخيراً استطاعَ رَجلٌ أَلمانِيٌّ يُسَمَّى يُوحنَّا جُوتِنبِرْج اخْتِرَاعَ حُروفٍ للطِّباعَةِ مُنذ خمسمائة سنةٍ تقريباً ، وكان هَـذا الرَّجُلُ مَشْهُوراً قبلَ ذلك بصناعةِ المَرَايَا وَصِياغَةِ الجَواهِرِ ، وقد استطاعَ أَنْ يَخْتَرِعَ الحُروفَ الصَّغيرةَ المَصْنوعَةَ من المعدنِ التى اسْتُعْمِلَتْ لأَوَّلِ مَرَّةٍ فى الطِّباعةِ وَصارَتْ من أَهَمِّ أَجْزَاءِ المطْبَعَةِ .

* * *

ورأَى رجلٌ كانَ يَعيشُ فى فَرَنْسَا هـذهِ الحُروفَ التى صَنَعَها جُوتِنبِرْج مِنَ المَعْدَنِ فلم تُعْجِبْهُ ، وأرادَ أَنْ يُنَافِسَهُ فأخذَ يفكِّرُ فى طَرِيقَةٍ يَصْنَعُ بهـا حُرُوفاً أَحْسَنَ من تِلْكَ الحُروفِ المَعْدَنِيَّةِ حَتَّى يَتَفَوَّقَ عَلَى جُوتِنبِرْج ، وقد تمكَّنَ هَذَا الرَّجُلُ الفَرَنْسِىُّ من اخْتِرَاعِ حُروفٍ جَمِيلَةٍ قَوِيَّةٍ ، وصَنَعَها من الرَّصَاصِ .

وأُحِبُّ أَنْ تَعْلَمُوا يا أَبْنائِى أَنَّ الإِنسانَ إِذَا فكَّرَ فى اخْتِرَاعِ شىءٍ مُفيدٍ فإِنَّهُ لا بُدَّ مِنْ أَنْ يَتَّجِهَ إِلَيْهِ بعزيمةٍ قويَّةٍ وَإِرادَةٍ صادِقةٍ حتى يَنْجَح كَمَا نجحَ جُوتِنبِرْج فى اختراعِ حروفِ المطبعةِ .

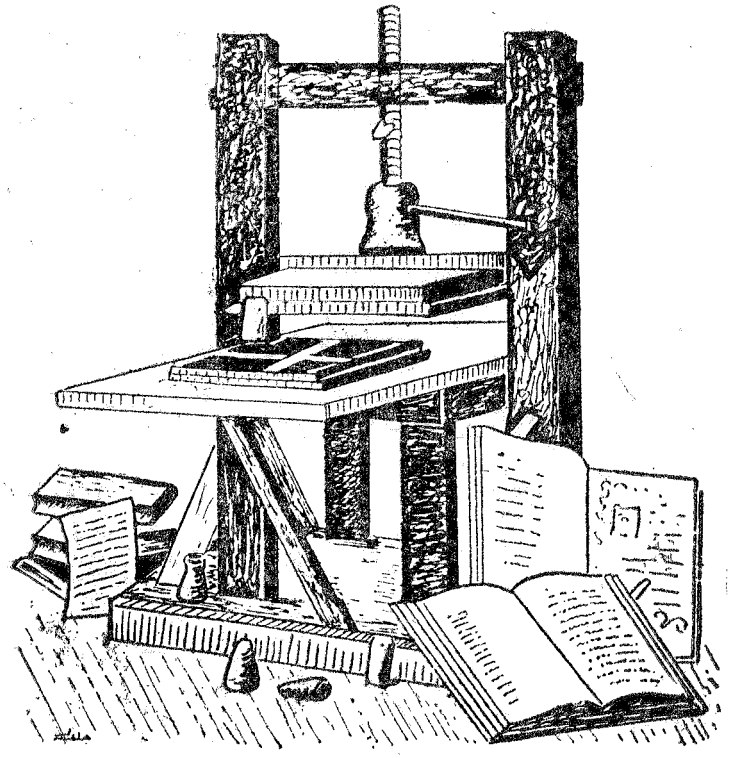

مطْبعةُ جُوتِنبِرْج

والمطبعةُ التى اخترَعها جُوتنبِرْج كانَتْ تتَكوَّنُ مِنْ قاعِدةٍ صَلْبَةٍ تُوضَعُ عَلَيْها الحُروفُ المَصفوفَةُ ثمَّ توضَعُ فَوْقَ هذهِ الحُروفِ الوَرَقَةُ المُرادُ طَبْعُها ثمَّ يضغَطُونَ عليها بلَوْحٍ ثقيل مِنَ الصُّلْبِ يُسَمُّونهُ (المِكْبَسَ) ضَغْطاً شديداً فتَظْهَرُ الحُروفُ مَطْبُوعَةً طبعاً وَاضِحًا .

وَهنا سَأَلَ عِصامٌ وَالِدَهُ :

ـ وَمَاذَا كان النَّاسُ يقرءونَ من الكُتُبِ قبلَ اختراعِ المطبعةِ ؟

ـ كانُوا يقرءونَ الكُتُبَ المَخْطوطَةَ .

ـ المَخْطُوطَةَ ؟

ـ نَعَمْ يَا عِصامُ : كانت الكُتُبُ تُكْتَبُ بخطِّ اليَدِ ،لذلكَ سَمُّوها مَخْطوطَةً ، وهذهِ الكُتُبُ لا يَزَالُ كثيرٌ مِنْهَا مَوْجوداً ، وَبَعْضُهَا مَحفوظٌ بدُورِ الكتبِ العامَّةِ،ولو ذَهَبْتُمْ إلى دارِ الكُتُبِ بميْدَانِ بَابِ الخَلْقِ بالقاهِرةِ لَوَجَدْتُمْ عدداً كبيراً مِنْ هذهِ الكُتُبِ التى كَتَبَهَا مُؤَلِّفُوها بِأَيْدِيهِم أَوْ بأَيْدِى غَيْرِهِمْ مِنَ الخَطَّاطِينَ

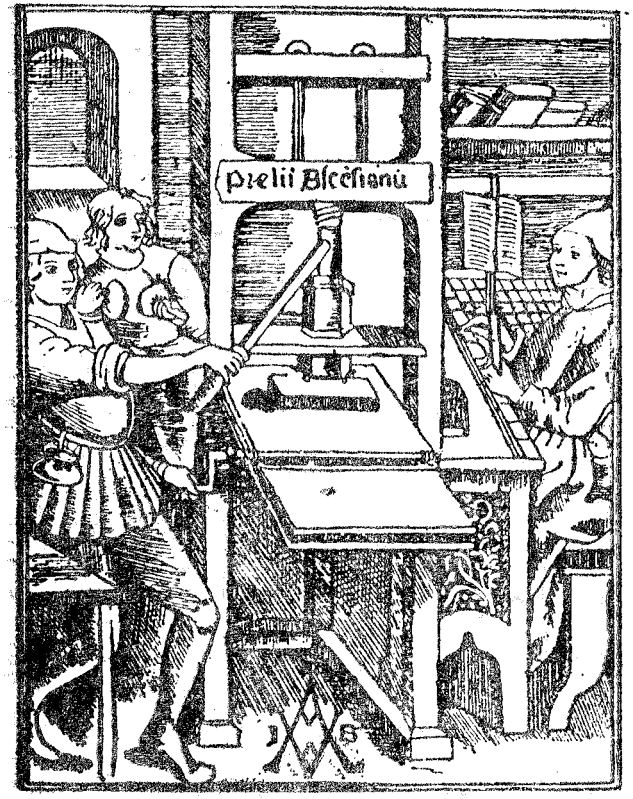

المطبعةُ مُنْذُ ثلاثمائة سنة

قبلَ اختِراعِ المطبعةِ ، وَسَوْفَ أَذْهَبُ مَعَكُمْ قريباً إلى هُناكَ لِنُشَاهِدُوا بأَعْيُنِكم هذه الكُتُبَ القيِّمةَ .

وقالت بِنْتٌ مِنَ المَدْعُوَّاتِ :

ـ هَلْ فَرِحَ النَّاسُ يا عَمِّى بالمطبعةِ حين ظَهَرَ اختراعُها كما فَرِحْنا نحنُ حين شاهَدْناها اليَوْمَ ؟

فقال والِدُ عِصامٍ :

ـ أَنْتُمْ تَسْتَعْجِلونَ كلَّ شَىْءٍ دائِماً ، سَمِعْتُمْ مِنِّى أَنَّنى سَأَحْكى لكم كلَّ شَىْءٍ وأَقُصُّ عليكم تاريخَ المطبعةِ فاتركونى أُتِمّ القِصَّةَ ولكم أَنْ تَسْأَلونى أَىَّ سُؤَالٍ بَعْدَ أَنْ أَنْتهِىَ مِنْ حِكايةِ هَذا التَّاريخِ .

* * *

إِسْمَعوا يا أَعِزَّائِى مَا أَقولُ :

لم يفرحِ النَّاسُ كلُّهُمْ بظُهُورِ المَطْبَعةِ ، بل إنَّ بَعْضَ الحُكومَاتِ ولا سِيَّما الفَرَنْسِيَّة اعْتَبَرَتْها من أَعْمالِ السِّحْرِ ، الَّتِى يُجازَى مَنْ يَقومُ بِها بالإِعْدامِ حَرْقاً .

وَبَعْضُ الحُكومَاتِ رَحَّبَتْ بِهَذَا الاخْتِراعِ لأَنَّ المطبَعةَ يَسَّرَتْ طَبْعَ الأَوامِرِ الحُكومِيَّةِ وَالقَوانِينِ العامَّةِ التى يُلْصِقُونَها عَلَى الجُدْرانِ فى الشَّوارِعِ والحارَاتِ لِيَقْرَأَها النَّاسُ وَيَعْمَلُوا بِما يُعْلَنُ فيها .

وَلَمْ يَسْتَطِعْ بَعْضُهُمْ صَبْراً فَقالَ :

ـ وَمَتَى عَرَفَتْ بِلادُنَا العَرَبِيَّةُ المَطْبَعَةَ ؟

فَضَحِكَ الْوالِدُ مُلْتَمِساً الْعُذْرَ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ حَرِيصُونَ عَلَى المَعْرِفَةِ وقالَ :

ـ أَوَّلُ مَنْ عَرَفَ المَطْبَعَةَ فِى وَطَنِنا العَرَبِىِّ الْكَبِيرِ لُبْنانُ وَمَدِينَةُ حَلَبَ فِى وَقْتٍ واحِدٍ تَقْرِيباً ، وَكانَ ذَلِكَ مُنْذُ مِائَتَيْنِ وخَمْسِينَ سَنَةً ، وَقَدْ طَبَعَ أَجْدادُنا بِها كُتُبَ الدِّينِ وَالْكُتُبَ المُصَوَّرَةَ .

ـ والصُّوَرُ أَيْضاً ؟

ـ نَعَمْ فَقَدْ اسْتَطاعَ المُخْتَرِعُونَ بَعْدَ جُوتَنْبِرْجْ حَفْرَ الصُّوَرِ والرُّسُومِ عَلَى الزِّنْكِ وَالنُّحاسِ ، وَبِذَلِكَ كانَتِ المَطْبَعَةُ الَّتِى

عَرَفَتْهَا حَلَبُ ، وَلُبْنَانُ قَادِرَةٌ عَلَى طَبْعِ الصُّوَرِ أَيْضاً .

وَلَمَّا جَاءَ نَابِلْيُونُ بُونَابَرْتْ إِلَى القَاهِرَةِ عَلَى رَأْسِ الْحَمْلَةِ الفَرَنْسِيَّةِ مُنْذُ مِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً تَقْرِيباً ، كَانَ يَحْمِلُ مَعَهُ ثَلَاثَ مَطَابِعَ قَرِيبَةَ الشَّبَهِ بِمَطْبَعَةِ حَلَبَ ، بَلْ أَفْضَلَ مِنْهَا وَأَحْسَنَ ، وَلَكِنَّ الشَّعْبَ العَرَبِيَّ ثَارَ عَلَى هَؤُلَاءِ المُعْتَدِينَ وَطَرَدَهُمْ وَحَرَقَ مُعْظَمَ المَطَابِعِ الثَّلَاثِ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ اسْتَعْمَلَتْ دِمَشْقُ هَذَا الاخْتِرَاعَ النَّافِعَ .

وَقَدْ أَخَذَتْ بِلَادُنَا مُنْذُ ذَلِكَ الحِينِ تَسْتَوْرِدُ أَنْوَاعاً كَثِيرَةً مِنَ المَطَابِعِ ، وَمِنْهَا مَا يُسْتَخْدَمُ لِطَبْعِ الكُتُبِ أَوْ مَا يُسْتَعْمَلُ لِطَبْعِ الصُّحُفِ ، وَمِنْهَا مَا جُعِلَ لِطَبْعِ الصُّوَرِ وَطَوَابِعِ البَرِيدِ وَالخَرَائِطِ المُخْتَلِفَةِ لِلْمُدُنِ وَالقُرَى وَالأَرَاضِي الزِّرَاعِيَّةِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ .

وَهُنَا قَالَ أَحَدُ الأَوْلَادِ :

ـ أَلَا يُمْكِنُ أَنْ نَصْنَعَهَا فِي مَصَانِعِنَا يَا عَمِّي ؟

ـ بِعَوْنِ اللهِ تَعَالَى سَوْفَ يَتِمُّ هَذَا قَرِيباً يَا أَبْنَائِي ، فَإِنَّ

ثَوْرَتَنَا ثَوْرَةٌ صِنَاعِيَّةٌ ، وَلَا بُدَّ أَنْ نَصْنَعَ المَطَابِعَ كَمَا نَصْنَعُ اليَوْمَ أَدَوَاتٍ مِثْلَهَا مُفِيدَةً وَدَقِيقَةً كَالسَّيَّارَاتِ وَالثَّلَّاجَاتِ وَأَجْهِزَةِ الرَّادْيُو وَالتِّلِفِزْيُون .

* * *

إِنَّنَا شَعْبٌ ذَكِيٌّ قَادِرٌ عَلَى الاخْتِرَاعِ فَلْيَضَعْ كُلٌّ مِنْكُمْ نُصْبَ عَيْنَيْهِ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الاخْتِرَاعِ مَتَى فَكَّرَ ثُمَّ صَمَّمَ ، وَلَا تَنْسَوْا أَنَّنَا أَحْفَادُ العَرَبِ الأَمْجَادِ الَّذِينَ سَبَقُوا العَالَمَ فِي مَيْدَانِ العُلُومِ وَالفُنُونِ ، وَلَوْلَا أَجْدَادُنَا العَرَبُ لَمَا ظَهَرَتْ الاخْتِرَاعَاتُ وَالعُلُومُ المُفِيدَةُ فِي أُورُبَّا الَّتِي نَقَلَتْ عَنَّا أَسَاسَ كُلِّ عِلْمٍ وَفَنٍّ .

لَقَدْ أَنْصَتَ الأَوْلَادُ بِكُلِّ اهْتِمَامٍ إِلَى كَلَامِ عَمِّهِمْ وَالِدِ عِصَامٍ ، وَفَرِحُوا فَرَحاً شَدِيداً حِينَ سَمِعُوا مِنْهُ أَنَّ بِلَادَنَا سَتَصْنَعُ المَطَابِعَ أَيْضاً ، كَمَا سَرَّهُمْ أَنَّ أَجْدَادَهُمُ العَرَبَ كَانُوا أَصْحَابَ كُلِّ الأَفْكَارِ العَظِيمَةِ الَّتِي غَيَّرَتْ وَجْهَ الدُّنْيَا وَمَهَّدَتْ لِلاخْتِرَاعَاتِ المُفِيدَةِ .

وَكانَ النَّهارُ قد انْقَضَى فى هَذِهِ الأحاديثِ البَارِعَةِ وَالمعلُومَاتِ القَيِّمَةِ ، فاسْتأذنَ الأولادُ عَمَّهُم فى الانْصِرَافِ ، دَاعينَ لهُ بطولِ العُمْرِ وَدَوَامِ الصِّحَّةِ ، مُوَدِّعينَ أَخَاهُمْ عِصَاماً ، وَأَلْسِنَتُهُمْ تُرَدِّدُ عِبَاراتِ الشُّكْرِ لهُ ولِوَالدِهِ الكريمِ عَلَى ما قَدَّمَا لهم مِنْ فَوَائِدَ وَمكْرُمَاتٍ .